

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقَرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

ربع

هذه آداب، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾، أى: لا تسرعوا فى الاشياء بين يديه، أى: قبله، بل كونوا تبعاً له فى جميع الأمور. قال ابن عباس: ﴿ لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم. ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾: أى: فيما امركم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ أى: لا تقولكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتكم.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾: هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين الأ يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته. وقد روى أنها نزلت فى الشيخين أبى بكر وعمر. وروى البخارى عن ابن أبى مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رفعوا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع: لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافى. قال: ما أردت خلافك. فارتفعت أصواتهما فى ذلك، فانزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعنى أبى بكر. انفرد به دون مسلم (١). ثم روى البخارى عن عبد الله بن الزبير: أنه قدّم ركب من بنى تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافى. فقال عمر: ما أردت خلافك، فتمازيا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت فى ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ حتى انقضت الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية [الحجرات: ٥]. وهكذا رواه هاهنا منفرداً به أيضاً (٢).

وروى البخارى عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه. فاتاه فوجده فى بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شراً، كان يرفعُ صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حببط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه

قال كذا وكذا، قال موسى: فرجع إليه المرة الأخيرة ببشارة عظيمة فقال: «أذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة» تفرد به البخارى من هذا الوجه (١). وروى الإمام أحمد عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال: أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ حبط عملى، إنا من أهل النار، وجلس فى أهله حزينا، ففقدته رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال: أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار. فاتوا النبى ﷺ فأخبروه بما قال، فقال: «لا، بل هو من أهل الجنة». قال أنس: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفته، فقال: بشما تُعودون أقرانكم. فقاتلهم حتى قُتل (٢).

وروى مسلم عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت فى بيته، قال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ لسعد بن معاذ: «يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟» فقال سعد: إنه لجارى، وما علمت له بشكوى. قال: فاتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل، هو من أهل الجنة» (٣). فهذه الطرق الثلاث مَعْلَمَةٌ لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بنى قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت فى وفد بنى تميم، والوفود إنما تواتروا فى سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله عز وجل، عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع صوت رجلين فى مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء، فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالوا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً (٤). وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ، كما كان يكره فى حياته؛ لأنه محترم حيا وفى قبره ﷺ، دائما. ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه عن عدا، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، كما قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وقوله عز وجل: ﴿أَنْ تَحِطُ أَعْمَالِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أى: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء فى الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة. وإن الرجل

(٢) المسند (٣٧/٣)، وهو عند البخارى، انظر السابق.

(٤) البخارى (٤٧٠).

(١) البخارى (٤٨٤٦).

(٣) مسلم (١٨٧/١١٩).

ليتكلم بالكلمة من سَخَطَ اللهُ لا يُلْقَى لها بالا يَهْوَى بها فى النار ابد ما بين السموات والارض « (١) .
ثم نذب الله عز وجل، إلى خفض الصوت عنده، وحثاً على ذلك، وأرشد إليه، ورغب فيه،
فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْضُونَ أصواتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ أى: اخلصها لها وجعلها أهلاً
ومحلاً ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . وقد روى الإمام أحمد فى كتاب الزهد عن مجاهد، قال: كُتِبَ إلى
عمر: يا امير المؤمنين، رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها افضل، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل
بها؟ فكتب: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ
لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ ﴾

ثم إنه تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهى بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب،
فقال: ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم أرشد إلى الأدب فى ذلك فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ ﴾ أى: لكان لهم فى ذلك الخير والمصلحة فى الدنيا والآخرة. ثم قال داعياً لهم إلى التوبة والإنابة:
﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى، فيما أورده غير واحد، روى الإمام أحمد عن
الأقرع بن حابس؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، فقال: يا محمد، يا محمد - وفى
رواية: يا رسول الله - فلم يجبه. فقال: يا رسول الله، إن حمدى لزين، وإن ذمى لشين، فقال: «ذاك
الله، عز وجل» (٣) .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ فَاسِقٌ يُنَادِي فَيَسْتَمِينُوا أَن يُصِيبُوا قَوْمًا يَجْهَلُونَ فَضَحِكُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ
تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ
وَزَيَّنَّ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٢﴾ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

يأمر تعالى بالثبث فى خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون - فى نفس الأمر - كاذباً أو
مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتضى وراه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن
ها هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه فى نفس الأمر، وقبلها
آخرون لأنها إنما أمرنا بالثبث عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أى: اعلمو أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه ،
وتأدبوا معه ، وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم

(١) البخارى (٦٤٧٨) .

(٢) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥٥٢/٧) لأحمد فى الزهد .

(٣) المسند (٤٨٨/٣) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٨٠٨/٧) : « إسناده أحمد رجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة سمع
من الأقرع بن حابس ، وإلا فهو مرسل » .

لأنفسكم، كما قال تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الاحزاب: ٦]. ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال : ﴿ لَوْ يَطِغُوكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أى : لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لادى ذلك إلى عنتكم وحرَجكم، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزِينَةً فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : حبه إلى نفوسكم وحسنه فى قلوبكم . ﴿ وَذِكْرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ أى : وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهى الذنوب الكبار . والعصيان وهى جميع المعاصى . وهذا تدريج لكمال النعمة . وقوله : ﴿ أَوْلَيْتُكُمْ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم . روى الإمام أحمد عن ابن (١) رفاعة الزرقى، عن أبيه قال : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ : «استوتوا حتى أتى على ربي، عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً، فقال : «اللهم، لك الحمد كله . اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت . اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك . اللهم، إني أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول . اللهم، إني أسألك النعيم يوم العيلة، والامن يوم الخوف . اللهم، إني عائد بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعنا . اللهم، حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين . اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مقتونين . اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم، قاتل الكفرة الذين أتوا الكتاب، إله الحق» . ورواه النسائى فى اليوم والليلة (٢) . وفى الحديث المرفوع : « من سرته حسنة، وسأته سيئة، فهو مؤمن » (٣) .

ثم قال : ﴿ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أى : هذا العطاء الذى منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عليم بمن يستحق الهداية بمن يستحق الغواية، حكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره .

﴿ وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

يقول تعالى أمراً بالإصلاح بين الفتين الباغيتين بعضهم على بعض : ﴿ وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ، فسامهم مؤمنين مع الاقتال . وبهذا استدلال البخارى وغيره على أنه لا يخرج عن

(١) فى المخطوطة والطبوعة : « أبى رفاعة » صوابه ما أثبتناه من المسند والنسائى ، وابن رفاعة هو : عبيد .

(٢) المسند (٢٤٤ / ٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٢٥ / ٦) : « رجاله رجال الصحيح » . والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٦٠٩) ، وصححه الحاكم فى المستدرک ووافقه الذهبى (٢٣ / ٣) .

(٣) المسند (١١٤) والترمذى (٢١٦٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخارى عن أبى بكره، أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن على، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابنى هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (١). فكان كما قال ﷺ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله تعالى: ﴿إِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى: حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرتك إياه» (٢). وروى الإمام أحمد، أن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبى؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهى أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي ﷺ قال: «إليك عنى، فوالله لقد آذاني ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجلان من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والتعمال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. ورواه البخارى ومسلم بنحوه (٣).

وقوله: ﴿إِن لَّمْ يَأْتُوا فَاصلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقسطُوا إِذَ اللّٰهُ يُحِبُّ الْمُقسطِينَ﴾ أى: اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط، وهو العدل، ﴿إِنَّ اللّٰهُ يُحِبُّ الْمُقسطِينَ﴾. روى ابن أبى حاتم عن عبد الله ابن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن، بما أقسطوا فى الدنيا». ورواه النسائى (٤). وهذا إسناد جيد قوى، رجاله على شرط الصحيح. عن عبد الله ابن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما ولّوا». ورواه مسلم والنسائى (٥).

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أى: الجميع إخوة فى الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» (٦). وفى الصحيح: «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه» (٧). وفى الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله» (٨). والأحاديث فى هذا كثيرة، وفى الصحيح: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له مائر الجسد بالحُمى والسَّهَر» (٩). وفى الصحيح أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه (١٠). وروى أحمد عن سهل بن سعد الساعدى، عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما

(١) البخارى (٢٧٠٤).

(٢) المسند (١٥٧/٣) والبخارى (٢٦٩١) ومسلم (١١٧/١٧٩٩).

(٣) النسائى (٥٣٧٩).

(٤) البخارى (٢٤٤٢) ومسلم (٥٨/٢٥٨٠).

(٥) مسلم (٨٧/٢٧٣٢).

(٦) البخارى (٦٠١١) ومسلم (٦٥/٢٥٨٥).

(٧) البخارى (٢٤٤٣).

(٨) مسلم (١٨/١٨٢٧) والنسائى (٥٣٧٩).

(٩) مسلم (٣٨/٢٦٩٩).

(١٠) مسلم (٦٦/٢٥٨٦).

يالم الجسد لما فى الرأس (١). تفرد به ولا بأس بإسناده. وقوله: ﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَابِكُمْ﴾ يعنى: الفتيان المقتتلين ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم ﴿تَعْلَمُكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمًا مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنكُمْ وَلَا تَنْابِرُوا إِلَىٰ أَلْقَابٍ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبر ببطر الحق وغمص الناس» ويروى: «وغمط الناس» (٢). والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحقر له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمًا مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنكُمْ وَلَا تَنْابِرُوا إِلَىٰ أَلْقَابٍ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فنص على نهى الرجال وعطف بنهى النساء.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا تلمزوا الناس. والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيَل لَّكُم مِّمَّةٌ لِّمَّةٍ﴾ [الهمزة: ١]، والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هَمَّازٌ مِّشَاءٍ بِنَجِيمٍ﴾ [القلم: ١١] أى: يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم، ويمشى بينهم بالنميمة وهى: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أى: لا يقتل بعضكم بعضا. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْألقَابِ﴾ أى: لا تدعوا بالألقاب، وهى التى يسوء الشخص سماعها. روى الإمام أحمد عن أبى جبير بن الضحاك قال: فىنا نزلت فى بنى سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْألقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فىنا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْألقَابِ﴾. ورواه أبو داود (٣). وقوله: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أى: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم فى الإسلام وعقلتموه، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أى: من هذا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَEْعَضُكُم بِبَعْضٍ أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

(١) المسند (٥/ ٣٤٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨/ ١٩٠): «رجال أحمد رجال الصحيح».

(٢) مسلم (١٤٧/٩١).

(٣) المسند (٤/ ٢٦٠) وأبو داود (٤٩٦٢). ورواه الترمذى (٣٢٦٨) وقال: «حديث حسن صحيح».

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والاقارب والناس في غير محله ؛ لأن بعض ذلك يكون إثما محضاً، فليجتنب كثير منه احتياطاً ، وروى مالك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تخسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا، ولا تباروا، وكونوا عباد الله إخواناً». رواه البخارى ومسلم وأبو داود (١) . و عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». رواه مسلم والترمذى - وصححه (٢).

وقوله: «وَلَا تَجَسَّوْا» أى: على بعضكم بعضاً. والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال: «يَا بَنِي إِدْرِيءَ قَحْطَسُوا مِن بُونِ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسُوا مِن رُّوحِ اللَّهِ» [يوسف: ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تخسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» (٣). وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء. والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبايهم. والتدابر: الصرم.

وقوله: «وَلَا يَتَّبِعُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا» فيه نهى عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذى رواه أبو داود عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرايت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». ورواه الترمذى. وقال: حسن صحيح (٤). وروى أبو داود عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفة كذا وكذا! قال غير مسدد: معنى قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنساناً، فقال ﷺ: «ما أحب أنى حكيت إنساناً، وإن لى كذا وكذا». ورواه الترمذى . وقال : حسن صحيح (٥) .

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما فى الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «اثنوا له، بشئ أخو العشيبة» (٦)، وكقوله لفاطمة بنت قيس - وقد خطبها معاوية وأبو الجهم : «أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه» (٧). وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الاكيد؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: «أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مِمَّا فَكَرِهْتُمُوهُ» ؟ أى: كما تكرهون هذا طبعاً، فافكرهوا ذاك شرعاً ؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها ، كما قال ، عليه السلام ، فى العائد فى هبة: «كالكلب يقيء ثم يرجع فى قيئه» (٨) ، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء» (٩) . وثبت فى الصحاح والحسان

(١) الموطأ (٩٠٨/٢) والبخارى (٦٠٦٦) ومسلم (٢٨/٢٥٦٣) وأبو داود (٤٩١٧) .

(٢) مسلم (٢٣/٢٥٥٩) والترمذى (١٩٣٥) . (٣) البخارى (٢٤٤٢) .

(٤) أبو داود (٤٨٧٤) والترمذى (١٩٣٥) . (٥) أبو داود (٤٨٧٥) والترمذى (٢٥٠٢ ، ٢٥٠٣) .

(٦) البخارى (٣١٣٢) . (٧) مسلم (٣٦/١٤٨٠) .

(٨) البخارى (٢٦٢١) . (٩) البخارى (٢٦٢٢) .

والمسايد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا» (١). وروى أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». ورواه الترمذي. وقال: حسن غريب (٢). وروى أبو يعلى عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال: في خدورها - فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته» (٣).

وروى الحافظ أبو يعلى عن ابن عمّ لأبي هريرة أن ما عزا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد رنيت، فأعرض عنه - قالها أربعا - فلما كان في الخامسة قال: «رنيت؟» قال: نعم. قال: «وتدري ما الرنات؟» قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من امرأته حلالا. قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرنى. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والرشاء في البئر؟» قال: نعم، يا رسول الله. قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب. ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكلنا من جيفة هذا الحمار» قال: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال: فما نلتما من أخيكما أتفا أشد أكلا منه، والذي نفسى بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها» (٤) إسناده صحيح. وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة متنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يفتابون المؤمنين» (٥).

وقوله: ﴿وَأْتُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أى: تواب على من تاب إليه، رحيم لمن رجع إليه، واعتمد عليه.

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُفلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذا أن يشئ عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك، كما روى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس الجهني، عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمنا من منافق يعيبه، بعث الله إليه ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم. ومن رمى مؤمنا بشئ يريد شينه، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال». وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله وهو ابن المبارك - به نحوه (٦).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأَنْتُمْ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

(١) مسلم (١٢١٨/١٤٧).

(٢) أبو يعلى في مسنده (٢٣٧/٣) وقال الهيثمي في الزوائد (٩٦/٨): «رجاله ثقات».

(٣) أبو يعلى في مسنده (٥٢٤/١٠).

(٤) المسند (٣٥١/٣) وقال الهيثمي في الزوائد (٩٤/٨): «رجاله ثقات».

(٥) المسند (٤٤١/٣) وأبو داود (٤٨٨٣)، وصححه الألباني.

أَفْتَنَكُمْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَيْرٌ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب آخر كالفصائل والعشائر والعمائر والافخاذ وغير ذلك. وقيل: المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل. فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً، منها على تساويهم في البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته.

وقوله: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ: روى البخاري عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسالك. قال: «أكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسالك. قال: «فمن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا». ورواه النسائي (١). وروى مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». ورواه ابن ماجه (٢). وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: إن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى». تفرد به أحمد (٣). وروى الإمام أحمد عن درة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ فقال ﷺ: «خير الناس أقرؤهم، وأتقاهم لله، عز وجل، وأمرهم بالمعروف، ونهأهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم» (٤).

وقوله: ﴿إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ خَيْرٌ﴾ أي: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في «كتاب الأحكام»، والله الحمد والمنة.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِسُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

ربع

(١) البخاري (٣٣٧٤، ٣٣٨٣، ٤٦٨٩) والنسائي (١١٢٥٠).

(٢) مسلم (٣٤/٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣).

(٣) المسند (١٥٨/٥)، وقال الهيثمي في الزوائد (٨٧/٨): رجاله ثقات.

(٤) المسند (٤٣٢/٦)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/٢٥٧) من طريق شريك به، وقال الهيثمي في الزوائد

(٧/٢٦٦): رجاله ثقات، وفي بعضهم كلام لا يضر.

ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ أَتَقْلَبُونَ
 اللَّهُ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾ يَمْشُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا
 قُلْ لَا تَمْتُوا عَلَيَّ إِسْلَمْتُ بِلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى متكرراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم
 يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُرُونَا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ .
 وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة،
 ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان،
 فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص، قال:
 أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً
 وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي
 ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إليّ منهم فلا
 أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكيوا في النار على وجوههم». أخرجه في الصحيحين (١).

فقد فرق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. ودل ذلك على
 أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا
 على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحکم الإيمان في
 قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك. وهذا معنى قول ابن عباس
 وإبراهيم النخعي، وقادة، واختاره ابن جرير. وإنما قلنا هذا لأن البخاري ذهب إلى أن هؤلاء كانوا
 منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك. وقد روى عن سميد بن جبير، ومجاهد، وابن زيد أنهم قالوا في
 قوله: ﴿وَلَكِنْ قُرُونَا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسبي. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن
 خزيمه. وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ. والصحيح الأول؛ أنهم قوم
 ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا
 منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة. وإنما قيل لهؤلاء تاديباً: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ
 قُرُونَا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً،
 كقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ عَطَايِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب.
 وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما المؤمنون الكمل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي:
 لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: في
 قولهم إذا قالوا: «إنهم مؤمنون»، لا كجعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقوله: ﴿ قُلْ أَتَطْلُبُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أى: أتخبرونه بما فى ضمائرکم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى: لا يخفى عليه من مقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا اصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . ثم قال: ﴿ يَهْتَوُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ يعنى: الاعراب الذين يمتنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول، يقول الله رداً عليهم: ﴿ قُلْ لَا تَمَنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ﴾ ، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: فى دعواكم ذلك، كما قال النبى ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بى؟ وكنتم مفرقين فالفكم الله بى؟ وعالة فأغناكم الله بى؟». كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن^(١) . ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، ويصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .